في علم الاجتماع اللغوي

تحليل اجتماعي لأحجية سودانية

بقلم الدكتور محمد محمد الزلباني

يقول جويسبي بيتريه Gussepi Pitré عالم الفولكلور الايطالي: « ان ميدان الفولكلور يشمل الحياة الانسانية كلها ، ومن أجل ذلك فهو حقيق ان يسمى بعلم الديموسيكولوجيا Demosicologia أي علم نفس الشعب » . وتسجيل القصص الشعبي في السودان عملية لا تزال في بدايتها ، وكان من أبرز روادها ، فيما اعلم ، الاستاذ الدكتور عبد الله الطيب . وقد كان مقلا في هذا الحقل الخصيب ، فان جملة انتاجه فيه ، والذي وقع بيدي ، لا يتجاوز خمسة كتيبات ، تولى نشرها مكتب النشر بالخرطوم ، تحت عنوان « الاحاجي السودانية » . بيد أن هذا النتاج على صغر حجمه يتميز بدرجة عالية من الصدق في نقل الروح الشعبية ، وحسبك انه مكتوب بكل البلاغات الحياتية للغة الحياة اليومية ، وان كاتبها ، قصر دوره على القيام بعمل الناقل البارع الامين ، اذ التزم التزاما قويا ، بتصوير ما يجري في البيئة الاجتماعية التي تدور على مسرحها الاحداث ، وتصل الامانة في الواقعية الى حد ايراد الفاظ السباب السوقية.. والمألوفة ممن تصدر منهم ، في مواقف معينة ، من الفئات الشعبية ، دنيا الدنيا ، كلعن البنت ابان لا تجاريها في عمل معين تقترحه على لداتها، ومثل الاشارة الى افعال قد تنبو – في نظر بعض المثقفين المترفين – عن الذوق السليم، كاطفاء احدى البنات، او النساء : النار بالتبول عليها. ومما يزيد في واقعية الصور، ان الاحاجي اشبه بشريط سينمائي ناطق ، لا يحتفظ بالصور وحدها ، بل يقدم كل من يرافقها من « صوتيات » تتصل ببنـي الانسان ، وبالحيوانات ، وبعناصر الطبيعة .. وحتى بمهمات الجن وما اليها .. ويكاد التصوير الحسي يستثير كل حواسنا ، ومن ثم فليس اسهل من تحويل الاحاجي الى تمثيليات اذاعية ، مسموعة ، ومرئية ، جديرة اذا احسن اخراجها وتمثيلها ان تشد انتباه المستمعين شدا .

وسأناقش الآن حجوة (اعني اقصوصة شعبية) عنوانها : الملك البخيل . وهنا يبدو ألا مندوحة من تلخيصها اولا ، فقد لا تكون النسخة الاصلية من الاحاجي تحت يد القارىء الكريم ، ومن هنا عذري في اعطاء فكرة مجملة عنها فيما يلي :

تلخيص الاقصوصة

كان احد السلاطين شديد البخل ، ومع انه كنز كثيرا من المال ، وتجدد اندفاق الثروة في خزانته ، الا انه تردد عاما بعد عام في اداء فريضة الحج الى بيت الله الحرام ، خشية التكاليف ، لانه ما من شخص استشاره السلطان ، كم يكلف اداء هذه الفريضة .. الا قدر مبالغ كبيرة مراعيا مكانة السلطان ، وثراءه الفاحش .. الى ان قدم تكروري فقير ، فسأله السلطان رأيه ، فذكر للسلطان أن الحج يتم باقل نفقة ، اذا ركب الشخص ظهر حمار ، فتزود لرحلته بكمية من «الكسرة» و « الابرية » فان نفد منه الزاد فما عليه الا ان يتكفف الناس . وطوعت للملك نفسه ان يقبل هذه الوسيلة الرخيصة ، وكانما كافأ التكروري على مشورته ، فجعله سلطانا في غيابه ، حتى يؤوب . وبعد رحيل السلطان ، لمح التكروري الاميرة بنت مولاه – وكانت بكرا كالبدر – تطل من احدى شرفات القصر ، فراعه جمالها ، فطمع فيها ، فصعد اليها ، وانه لفي منتصف الطريق فوق الدرج ، اذا هي قد تنبهت اليه ، فاشرفت عليه من أعلى السلم ، فأمرته ان يهبط ادراجه ، فأبى ، وواصل الصعود ، فقذفته ببنبر ، أصابه في ساقه ، فانكسرت ، فادعى فيما بعد ان الكسر حدث له وهو يركب حصانا، فعولج من الاصابة بوصفة شعبية طريفة ، ثم فكر وفكر ، فقدر انه لا بد من التخلص من الاميرة بنت السلطان ، بعد ان تمنعت عليه ، خشية ان تنبىء أباها السلطان بما كان . وعمد التكروري الى حيلة دنيئة ، فكتب الى السلطان وهو في الحجاز : ان ابنته حامل ، فرد السلطان انه اذا عاد فوجدها في القصر، فليمزقها تمزيقا ، اربا اربا ، وعرض الخطاب على الاميرة المسكينة ، فرأت ان الاسلم لها ، ولعرضها ، ان تبارح القصر مع خادمها الخاص « مرسال » فجمعت كل ما قدرت عليه من مال وثياب وحلى ... فوضعته فوق ناقتين ، ثم ركبت هي ناقة ، وركب عبدها أخرى ، واخذت القافلة الثنائية الصغيرة تغذ السير ، حتى مس المسافرين اللغوب ، فحطا رحالهما تحت شجرة كثيفة ، في مكان به ماء ، فطمع مرسال في سيدته، وابلغها انه سيبني بها ، وانهما سيعيشان معا في كوخ يصنعه لها تحت هذه الشجرة ، ورأت من ملامحه ، وصوته ، وسلوكه الاصرار والشر فالجأها الامر الى الحيلة ، فتظاهرت بالموافقة على مقترحه ، واشترطت للتنفيذ ، ان يذبح احدى النياق ، فيهيىء طعاما كثيرا ، ومائدة حافلة ، ليطعما منها كل رائح وغاد ، وليتجمع اكبر عدد من الناس ، فلا بد للزواج من شهود ، ومن اشهار .. وشغل العبد بما كلف به ، من ذبح الناقة ، وتقطيعها ، وتنظيفها ، ... وجلب الحطب ، والطبخ ... فلما انتهى من ذلك كله ، بعد ساعات طويلة ، وجهد جهيد ، كان التعب قد بلغ منه مبلغه ، فزحف كالكسيح الى الطعام في شراهة ، فاكل حتى الكظة ، فرقد كالجثة الهامدة ، فقامت الى النار فأذكتها ، واخذت بعض الشحم من سنام الناقة ، فاذابته في ماعون ، فصبته فوق منخري العبد وفمه ، دفعة واحدة ، فمات العبد لتوه ، ولكيلا تشره العيون اليها بعد ذلك كامرأة ، فقد تنكرت في هيئة رجل تاجر ، فقصت شعرها ، ونزعت حليها ، ولبست لبس الرجال ، وحملت في يدها سيفا ، وفوق ذراعيها خنجرا ، وواصلت السفر حتى بلغت حلة ، فعرجت على دكان فيها ، تشتري فيها شيئا . وكان الفارس الشهير ود النمير في الدكان، فانجذبت عيناه الى التاجر الزائر ، فتحدث معه ، واستضافه ، ووقع في روع الفارس ان التاجر أشبه بالانثى منه بالرجل . ولسنا نستغرب شكه ، فقد عاشت الاميرة مرفهة مخدرة ، فلا عجب كانت ملامحها غضة لم تتعرض لقسوة الجو ، ويدها رخصة لا عهد لها بعمل ، وهيئتها كلها تنم عن الرقة ، ولكنها قبلت الضيافة ، فذهبت مع ود النمير الى بيته ، فاخذا يسمران طرفا من الليل ، وهي تحدثه حديث الرجل الى الرجل. ثم آوى كل منهما الى فراشه ، فلما كان الصباح ، أسرع ود النمير الى عجوز مشهود لها بالذكاء والدهاء ، فصارحها بشكه ان التاجر ضيفه يغلب ان يكون انثى لا ذكرا ، وسألها ان تعلمه حيلة يقطع بها الشك باليقين ، فقالت له : لا ، لا ادري ، فأجابها : « انت تعرفين كل شيء » فنصحته ان ينحي عن بيته كل ما فيه من (عناقريب) ، الا واحدا ، بحجة

● ملاحظة : لفظة الاحاجي في اللهجة السودانية الدارجة تعني الحكاية الشعبية .

وصول مداحين للقرية وضيوف ، واشارت عليه ان يرقد علـــى فروة ، ويترك العنقريب الوحيد للتاجر ، فان انفرد هذا الاخير بالرقاد عليه ، فانثى تفزع من مشاركة الرجل فراشها ، وان قاسمت الفارس الفراش ، فهو رجل لامراء . وادركت الاميرة بثاقب نظرها حيلة الفارس ، فدعته الى الرقاد واياها على نفس العنقريب ، والففت بثيابها ، فنامت علـى جانب ، ونام هو على الجانب الآخر ، ولكن الشك لم يذهب عنه . فعاد الفارس الحيران الى العجوز يستلهمها حيلة اخرى ، فلجأت الى السحر، وامرته ان يضع تحت كل من عنقريبها وعنقريبه في اول الليل عرقا مـن العروق السحرية ، اعطته اياه ، وان يضع الى جانب العرق قرعة فيهـا لبن ، فاذا اسفر الصبح ، فـــان اللبن تحت عنقريبه هـــو سيحتفظ بسيولته ، وكل خصائصه الاخرى ، وان كان التاجر امرأة ، فان اللبـن تحت عنقريبها سيروب . ولكن الاميرة اليقظة لكل كيد ، تنبهت ، فقامت في الفجر ، فتخلصت من اللبن الرائب ، وحلبت في قرعتها لبنا حليبا من احدى البقرات ، بالمنزل ، ثم عادت الى فراشها كأن لم تفعل شيئا ، ففسدت الحيلة الثانية .

ولكن ود النمير لم يفارقه شكه ، فذهب ثالثة الى العجوز الداهية، فنصحته ان يزوج ضيفه التاجر الى احدى بنات القرية ، فعقـــد ود النمير للتاجر على ابنة اخيه ، بعد أن هدد هـــذه الاخيرة ان تصدقه القول هل التاجر رجل أم امرأة .. ولكن ابنة اخيه ، بعـــد ان اختلت بها الاميرة ، استمعت الى قصتها ، فعطفت عليها في محنتها ، وتعهدت بسترها ، واخبرت عمها في اليوم التالي ان عريسها رجل بالفعل ، ومع ذلك فان الشك ظل يلازم ود النمير فهرول الى العجوز يستفتيها مـــن جديد ، فقالت له : قد يكون التاجر ضيفك أنثوي القوام ، ناعم الجسم، لين الحركات ، فاتك النظرات ، وفي صوته غنة ... ولكنه مع ذلك قد لا يفتقد الذكورة ، فليدع هذا الضيف وشأنه ، ولكن ود النمير أصر ان تواصل العجوز مكيدتها ، فنصحته ان يزوج ضيفه بعروس اخرى ، على أساس ان الغيرة بين الزوجتين جديرة ان تدفع احداهما الـــى هتك السر ، وكشف الامر ، فزوج ود النمير بنت اخته للتاجر، وهدد العروس الجديدة انه سيحتز رأسها بالسيف ، ان هـــي كذبته القول ، ولكـن الشابة الباسلة بدورها تضامنت في ستر الاميرة ، ثـــم مضى قرابة عامين ، فقدرت الاميرة أن أباها السلطان لا بد ان يكون قـــد عاد مـن الحجاز ، فاستأذنت من ود النمير ان ترحل بزوجيها الى بلدها ، وفي الليل ، وضعت تحت مخدته ورقة كتبت فيها قصتها ، وانطلقت النسوة الثلاث ، فوصلن قصر السلطان . وكانت الاميرة في هيئة تاجر ، فسلمت على أبيها فلم يعرفها ، وقدمت له هدايا من الذهب ، ففرح بهـا لشدة جشعه ، ورحب بالتاجر او بالاحرى بابنته ، فدعاها الى الطعام علـــى مائدته ، بعد ان صرف الزوجتين الى حجرات الحريم في قصره . وعلى المائدة قصت بنت السلطان امام التكروري وأبيها ومن حضر المأدبة قصة ملك استأمن عبدا غريبا ، فحاول العبد ان يخونه فـي عرضه ، واحس السلطان انه هو الملك المشار اليه في القصة ، وارتجف التكروري ، ومـا كاد الملك يبدأ التحقيق ، حتى اقبل ود النمير ، والذي اطلع السلطان على خطاب الاميرة ، ونزعت الاميرة ثياب التنكر ، فاحتضنها الملك فرحا باكيا ، وأمر بقطع رقبة التكروري وزوج ابنته لود النمير فأما ابنتـــا أخيه وأخته فتزوجهما اميران قدما من بلاد بعيدة .

التحليل الاجتماعي للاقصوصة الشعبيـــة

يلفت النظر عند التحليل السوسيولوجي لهذه الحكاية الشعبيـــة عدة أمور ، تتكامل فيما بعد ـ كما سنرى ـ لتؤلف فلسفة متسقة تدور حولها هذه « الحجيوة » .

أولا ـ الاشادة بالمرأة بصفة عامة :

فنحن في هذه الحكاية الشعبية ، نشاهد عدة نساء قمن بأعمـــال تستثير الاعجاب .

أ ـ الاميرة بنت السلطان :

وقد أمكنها بسعة حيلتها ، ان تحفظ عرضها من التكروري ، ومـن عبدها الخصوصي ، ومن الفارس العظيم ود النمير ، وقـــد أفسدت بذكائها ـ غير مستعينة بأحد ـ كل الحيل والتجارب والاختبارات التي مارسها معها ود النمير ، مسترشدا بالعجوز الماكرة ، ولعل مما ساعدها على ذلك انها كانت على حظ من التعليم بدليل انها تركت لود النمير ، عند رحيلها ، رسالة خطت فيها بيدها ، كل قصتها .

ب ـ العجوز مستشارة ود النمير :

ان العجوز هنا ، تمثل العقل الذي يوحي ، ويدبر ، بحيث لم يكن ود النمير رغم شجاعته ، وبطولته ، الا اداة للتنفيذ ، ولا نكاد نلمح لـه حيلة شخصية ، لاستكناه سر ضيفه . وهـــذا يشير الـــى التركيب الاجتماعي في بعض مجتمعاتنا المحلية ، ذلك التركيب الذي تتمتع فـــي ظله العجوز ، او الحبوبة عموما ، بمكانة في النفوس عاليـــة سامية . وقد ألمع الى هذه الظاهرة الاجتماعية الادبية الاستاذ الدكتور عبد المجيد عابدين ، فقال : أن الاطفال هنا في السودان ، اذا هـم تحلقوا حولها ، لتقص عليهم الاحاجي والغلويتات (أي الالغاز او الاغاليط) .. اعتادوا ان يقولوا لها : يا أمي العجوز ، أم كلاما بجوز ... وهـــذا يعني ان كلامها نافذ على كل فرد ، مؤثر في كل نفس . ويربط الاستاذ الدكتور عبد المجيد عابدين بين تسمية الجدة فـــي السودان بالحبوبة ، وبين كونها موضع الاعزاز من الجميع ، لا سيما الاحفاد . ونجـد ان للتعليل او للتفسير وجاهته وقيمته ، ففي ولاية برقة ، بالمملكة الليبية المتحدة ، تسمى العجوز « حانة » وهو اسم ـ مشتق بدوره من الحنان ..

فاذا تركنا الجانب اللغوي ودلالاته الاجتماعية ، وعدنا الـى ادوار Roles « العجائز في الادب الشعبي » ، وجدنا ان العجوز هي كهف اللاجئين لحكمتها ، ولخبرتها بالحياة ، ففي الاحاجي السودانية نراهـا تمد يد العون لكل من وقع في كربة ، او في مأزق ، كما في الاحاجي عن الجفيل ، واحذر عزاز، وفاطمة السمحة .. وتنطبق هذه الملاحظة علـى قصص وفيرة من ألف ليلة وليلة .. بل ان الظاهرة لهـا عموم اوسع نطاقا يتجاوز ادبنا العربي ، ويقول فـي ذلـك الاستاذ الكزاندر هجرتي كراب A. H. Krappe في كتابه « علم الفولكلور » .

« ان عدد الساحرات في القصص الشعبي يفوق عـــدد السحرة دائما ، ولعل وراء هذه الخاصية اللافتة للانظار ، ذلك الخوف الطبيعي الذي يحيط بالمرأة في سائر المجتمعات البدائية ، ولعل وراءه أيضا ان المرأة تملك قوة فائقة على الحدس ، وغريزة اقوى ... »

ج ـ الفتاتان قريبتا ود النمير :

ان ابنة أخي ود النمير ، وابنة اخته ، كانتا بدورهما غاية فـــي الشهامة ، فآثرتا حماية سر الاميرة ، وحماية شرفهـا رغـم انهما تلقتـا تهديدا وتحذيرا من ود النمير ، انه سيقطع رأسيهما ، اذا لم تصدقاه القول عن حقيقة جنس التاجر ... ورغم ولائهما لود النمير ، بحكـم القرابة القريبة ، بحكم وجودهما تحت رعايته ، وفي ظل ولايته ، ورغـم احترامهما اياه بل خوفهما منه ، الا ان شرف الاميرة ـ شريكتهما فـــي الجنس ـ كان أغلى من الحياة نفسها ، وتقول الحكاية الشعبية ، انهمـا كتمتا السر قرابة عامين !!

ثانيا ـ تمجد عفة المرأة كقيمة اجتماعية عليا

ان عفة المرأة لها قيمة عليا في الحكايات الشعبية السودانية، وفي الحياة الاجتماعية القبلية الاسلامية .. وحيث تسود نزعات دينية قوية، وثقافة عربية تعتز بالعرض ، وتضحي بكل شيء مـــن اجـل صيانته . والبيئة الاجتماعية لابطال هذه القصة يتضح فيها الحرص على الشعائر

الدينية ، فالسلطان مشغول الفكر بالحج ، وابنته قد ضرب عليها حجاب في قصره ، ولكن السلطان ما تكاد تصله رسالة كاذبة ان ابنته حملت سفاحا ، حتى ينذر انه سيقتلها ويمثل بجثتها فور عودته ، والاميرة دافعت عن عرضها في مآزق عديدة .. تعرضت فيها للترغيب والترهيب .. فكانت في خطر وهي تحت سيطرة التكروري .. والذي اعطي في غياب ابيها كل نفوذ وسلطان .. وتعرضت للاعتداء وهي وحدها في العراء ، مع عبدها مرسال ، وقد عدها صيدا حلالا .. وكان مركزها حرجا وقاسيا وهي في بيت فارس قوي .. فتى .. تراه وهي التي عاشت في الحجاب رأي العين .. وتحدثه الساعات الطوال .. وهما وحدهما .. تحت سقف واحد ، في خلوة كاملة .. فتسيطر على انوثتها .. بل وتغلف مسلكها ومظهرها بقناع رجالي ..

وتتمثل العفة كذلك ، في صورة باهرة ساحرة ، لدى ود النمير .. فقد تحرج من القيام بأية محاولة — مهما كانت بريئة — للكشف عن جنس ضيفه التاجر : أمن الذكران هو ام من الاناث ؟ ولو ان التنكر صدر من شخص يتزيا زي النساء . فشك ود النمير ، ان هذا الشخص فيه بعض خصائص الرجال ، ولو قد تحرج ود النمير ، من محاولة هتك سر امرأة يشك انها قد تكون رجلا ، لان فيها مشابه من الرجال ، لعذرنا حياءه . اما والتاجر الضيف يقول انه رجل .. فماذا عساه منع ود النمير من القيام بمحاولات بريئة مهذبة للتعرف المباشر على حقيقة جنس ضيفه ؟ لقد كان في وسع ود النمير وهو متناوم أن يمد يده على صدر ضيفه ، بدعوى انه يغطيه . وكان في مقدور ود النمير ان يحتضن ضيفه نهارا جهارا عقب كلمة يقولها الضيف ، فيرى فيها ود النمير حكمة عالية ، او ومضة فكرية ، او تعبيرا جميلا .. كان في مكنة ود النمير ان يراقب ضيفه اثناء الوضوء ليلاحظ ان كانت ساقه ناعمة ملساء ، او مغطاة بالشعر .. فكيف — وهو الفارس المغوار قد احجم عن أي سلوك ايجابي لاستكناه الحقيقة — والتي كان يتحرق شوقا لمعرفتها ؟ ان الاقصوصة بجوها توحي ان هناك عائقا نفسيا ، اعتقل ود النمير .. وحجزه عن القيام باية تصرفات غير سليمة في نظره هو ، وفي نظر اخلاق الفروسية . وان مجرد الاعتقاد ان الضيف قد يكون انثى ، جعل للضيف حرمات وحقوقا لا يمكن ان ينتهكها رجل شريف النفس ، فكيف اذا كان الى جانب ذلك فارسا ؟ وهكذا تهيب ود النمير ان يتصرف وحده للوصول الى الحقيقة ، فعطل ذلك الخوف عقله ، ان يبتدع مكيدة ، وغض من طرفه ، ولم تقبل له حواسه ان يتجسس ، وبدت له المسألة معقدة ، حتى لقد احتاج الامر الى العروق السحرية ، توضع تحت الفراش ، وهو المكان الامثل ، للاعمال السحرية ، على ما يقرر ذلك عديدون من علماء الفولكلور ...

فالعفة مطلوبة من المرأة ، ومن الرجل كذلك .. فهذا ود النمير .. معه من يشك انها امرأة ، في بيته ، تحت سقف واحد ، بل وذات مرة ، يجمعهما فراش واحد ، فلا يعتدي ... ان الثقافة العربية الاسلامية في السودان ، تمجد العفة عامة ، وتقدسها ، سجلته الادب الشعبي السوداني ومن ذلك قول الشاعر الشعبي في السودان :

انا الدابي ان كمن للذول بعيقه
انا المامون على بنوت فريقه

والشاعر الشعبي ابو دقينة يقول في وصف (ابو علي) جد الشكرية ، مؤسس دولتهم :

ما بياكل حلو بيته والمعاه جيعان
وما بلبس الرفيع والمعاه عريان
ضباح الخلايا لي عشا الضيفان
مامون السجايا البستودعوه النسوان

فليس غريبا ان يتجه الذهن الذي يؤلف الاحاجي شعوريا ، ولا شعوريا الى تقديس العفة ، واحسب اننا بعد هذه اللمحة ، نقر ما قاله عالم النفس الامريكي — وليم جيمس والذي يعتبره الكثيرون مؤسس علم الفولكلور — على قوله :

« قد نحسب بعض الاساطير ، والاحاجي الشعبية اشياء لا معنى لها ، والواقع ان الذين صاغوها صوروا — دون وعي منهم في الغالب — صوروا نفوسهم ومثلهم العليا ، وتاريخهم » ..

وهكذا ، فاذا كان ود النمير ، قد عجز ان يستشف السر وحده ، فلم يكن ذلك لغباوته .. بل لان تربيته غرست فيه ما يسميه الاديب الفرنسي العظيم : فيكتور هيجو « بالجهل المقدس .. أي البراءة من السر ، بعدم معرفة السر » . وقد كنا في الماضي ، نفرض على اولادنا وبناتنا هذا الجهل المقدس ، ونفجر اذا كان الفتى لعفته وشدة حيائه يحاكي العذراء !

ثالثا — تحذير النساء من العبد خاصة :

الشيء الثالث ، البارز ، في هذه الحكاية الشعبية ، هو تحذير النساء من العبيد الذكور ، ونحن نلمح طمع العبيد في سيداتهم ، في غير موضع واحد من هذه « الحجيوة » .. مرة من جانب التكروري وهو في مكانته ونوع معيشته ، لا يزيد عن عبيد الاميرة ، بل قد يقل عنهم .. ومرة من جانب عبدها الخاص مرسال . وطمع العبيد في سيداتهم . وخوف السادة من هؤلاء العبيد على نسائهم ، ووقوع حوادث فعلية من الاعتداء .. كل ذلك اوحى في سلطنة دارفور مثلا بتنظيمات كثيرة في قصر السلطان .. كخصي العبيد .. بل وخصي شخصيات عظيمة .. لها مراكزها العليا ، القيادية في الدولة .. وقد سجل ذلك كله محمد بن عمر التونسي في « تشحيذ الاذهان ، بسيرة بلاد العرب والسودان » .

ومن تعليلات هذه الظاهرة ما يأتي :

أ — ان النساء يتحجبن امام الاحرار ، فأما العبد فأهون عندهن من ان يتحرزن منه ، او يتقين عينيه ، وهكذا فانهن يبدين مفاتنهن امامه، فيختزن هو في ذهنه صورا مثيرة ، ويمسك رغبات جامحة ، وينطوي على احلام جريئة .. فاذا واتته الفرصة اهتبلها . وفي الاحاجي السودانية كما في « النيتو واللعيب » للدكتور عبد الله الطيب أيضا ، نرى السيد الشريف الحر ، يمنعه نظام الحجاب ، وشرف مركزه معا ، ان يتحسس ليرى خطيبته خلسة .. لانها هي شابة حرة ، فيرسل عبده ، فيتمكن لهوان شأنه من رؤيتها في سهولة ، بل ومن ادمان النظر اليها ، فتجول عيناه طليقتين في سائر انحاء جسمها ، بدليل انه يعود لسيده، ليقدم صورة غنية بالتفاصيل عن هذه الخطيبة ، فيصف عيونها ، وفمها، وانفها ، ونهديها ، وبطنها ، وظهرها ، وعجيزتها ، وساقيها ... الخ .

ب — ثم ان العبد قد يكون متزوجا ، وكثيرا ما كانت عيون السادة لا تقنع بالزوجة الحرة ، فتتجه الى الامة — حتى لو كانت زوجة لعبد — وقد يعلم ذلك العبد . او قد يشك في العلاقة الآثمة ، وقد تعلم زوجة السيد الحر .. فتلتقي الرغبة في الانتقام من السيد ، عند العبد المثلوم العرض ، والزوجة المنتهكة الكرامة ، فتكون الخيانة ، وقد سجلت « الف ليلة وليلة » مثل هذه الظاهرة .. ويقول الاستاذ لويد كابوت برجز ان لهذه الظاهرة آثارها الملموسة في قبائل ارستقراطية بالشمال الافريقي .. وتتالف هذه القبائل من رجال بيض .. نساؤهم بيضاوات كذلك .. وتحت امرة هؤلاء وهؤلاء ، عبيد سود ، واماء سوداوات .. ولكن عمليات الخيانة المتبادلة — على ما ذكر بريجز — ترتب عليها ظهور ابناء سود من زوجات حرائر بيضاوات ، وولادة اطفال بيض ، وضعتهن اماء سوداوات .. وتستر المعتقدات الشعبية أصول هذه الظاهرة بدعوى ان المرأة مدة الحمل .. اذا رأت — لمدة طويلة — شخصا جاء نسلها على مثاله !

جـ — يضاف الى ذلك ان كثرة تواجد السيدة — وخادمها — معا في مكان واحد ، تحت سقف واحد ، وسهولة الخلوة بينهما .. وتعرض المرأة احيانا لازمات نفسية .. يظهر فيها الخادم او العبد ولاءه وتعاطفه وتفانيه ... كل هذه الظروف قد توجد الفة حميمة ، يسقط معها العديد من الحواجز المفترض ان تحول بين العبد وسيدته .. أو التي يعتقد انها تمنع اي استلطاف عاطفي متبادل .. ويقول في ذلك

الجاحظ ـ وملاحظته سديدة وسيكولوجية بحق : سئلت امرأة حـرة : كيف زنت بعبدها ؟ فأجابت معتذرة : طول السهاد ، وقرب الوساد .

وبعد ، فلما كانت هذه الاقصوصة تستهدف تكريم المرأة ، والاشادة بعفتها ، فان العبد الذي يعتدي ، يلقى نهاية سيئة ، وتكون عقوبتـه غليظة رادعة . ذلك انه اذا كانت العفة مطلوبة من كـل ابناء المجتمع ، فليس ذلك بدرجات متساوية .. فالتشديد على عفة المرأة ، اقسى منه على عفة الرجل .. حتى يمكن القول ان هنـاك ثنائيـة خلقيـة او ازدواجية في المعايير الخلقية . ثم اذا نحن اخذنا الرجال كمجموعة .. فان العفة تكون مطلوبة بصورة اشد ، ممن تتيح لهـم ظروفهم سهولة التعدي ومن بين هؤلاء الجار بالجنب ، والاقارب غير المحارم ، والعبد او المولى او الخادم ، وتجيء القسوة مع العبد او الخادم اكثر واكثر ، لانه اشد مداخلة للنساء ، ولانه المأمون عليهن ، وقد كانت عقوبة الخائن من العبيد ... خاصة في الماضي مروعة .. ولم يكن يكفي الموت بطريقة سهلة او سريعة .. بل كان يرافقه التعذيب او البشاعة فـي ازهـاق الروح ، لتكون العقوبة رادعة لغيره ..

احسب ان الاستعراض السابق ، يهيىء الذهن لاستنتاج اخير : ان هناك احتمالا قويا ، أن هذه الاقصوصة ، انمـا تفتق عنها ، وابتدعها عقل امرأة .. واحدة ، او اكثر .. المهم ان في هـذه « الحجيوة » او الحكاية ، بصمات من الادب النسوي ، ومن القرائن التي تؤكد ذلـك ما يلي :

أ ـ ان القصة تقوم على امتداح كل الشخصيات النسائية فيهـا ، وابراز محاسن المرأة الخلقية والعقلية من عفة ، وذكاء ، ومكـر حسن ، وكتمان للسر ، وتعاطف في الضراء ...

ب ـ ان النساء ـ لانهن يعانين من كبت الرجال لهن ـ بدرجـة كبيرة او صغيرة ، يستمتعن بالقدر الممكن مـن الانتقاص مـن الجنس الاخر ـ الجنس الخشن ـ على نحو صريح او خفي ، قليل او كثير .. بحسب سماح الظروف لهن .. وكل الرجال الذين وردت سيرتهم فـي هذه « الحجيوة » كانت لهم معايبهم .

فالسلطان : جشع مادي ، يقبض كفه حتى عند اعتزامه الحج الـى بيت الله الحرام ، وهو يرتشي ويقبل الهدايا من التجار ، وتعرف ذلك ابنته عنه ، بل تجد من هذه العادة فيه مدخلا الى قصره والى قلبـه وهي في زي رجل .

فاما التكروري : فخنون لئيم لانه يعتدي على عرض سيده ، ذلـك السلطان الذي رفعه من مجرد متسول بائس ، الى نائب له يهيمن علـى الدولة .. ثم يأتي العبد الخصوصي مرسال ، والذي اسلمت مصيرها امانة بين يديه ، واذا هو ينقلب ـ بعد ان اتيحت له الفرصة ـ ذئبـا شهوانيا غبيا .. واذا كانت « الحجيوة » قد اعفت ود النمير من اللوم والانتقاص ، فلانه فارس الاحلام ... وهو مع ذلك يبدو اقل حيلة وذكاء من الاميرة الجميلة .

جـ ـ تصف الاقصوصة قريبتي ود النمير ، بكتمان السر ، وانهما صبرتا على عدم البوح بالسر الكبير مدة طويلة ، ومن النادر ، لـو ان القصة ألفها رجل ، ان تخلو من لوم النساء على افشاء الاسرار ، حتى لكان ذلك طبع فيهن ، لطول ما تؤكد ذلك مختلف الروايات والاقاصيص ... وفي كل بلاد الدنيا ...

د ـ على ان اكبر القرائن على نسوية الكثير مـن الاحاجي ، أن روايتها للصغار ترتبط بالحبوبات .. فالاجداد عادة لا يكون عندهم مـن الصبر ما لدى الجدات على قص الاحاجي والفلوتيات وما اليها .. وانما يوكل ذلك الى الحبوبات ، فلا جرم اسهمن في نسج الاساطير وصنع القصص ، لتطويع معانيها وصورها بحيث تلائم وجهة نظر المرأة .

وتعتبر رواية الاحاجي في الحقيقة .. ضمـن العملية الاجتماعية التي تهيمن العجائز على انجازها ، الا وهي الاشراف على نقـل التراث الثقافي التقليدي ، فهن في ذلك ، كما يقول العالم الفرنسي ماسون ، في البلاد العربية ، اشد محافظة ، من الشيوخ اي كبار السن مـن الذكور .. لان مجتمع الرجال يتعرض للتغييرات الاجتماعية ، حين يلقي الرجال الرجال فأما مجتمع النساء .. فهو عالم منفصل احيانا فـي نواح عديدة ، فيكون اكثر ركودا ، واكثر تشبثا بالقديم .

ولما كانت النساء العجائز هن المسؤولات عن تسلية الصغار وتثقيفهم بالقصص والاحاجي وما اليها ، خاصة في البيئات الريفية .. فـان دورهن يكون خطيرا في تلك العملية الاجتماعية الكبرى ، والتي يسميها علماء الاجتماع بفرس الافكار في الصغار ، ويبلغ من اهمية هذه العملية من الناحية الاجتماعية ان عددا من العلماء يرونها اهم موضوع للدرس لمن يتصدى لفهم المجتمع الذي تجري فيه هذه العمليات .

اعتراضات والرد عليها :

وقد يعترض معترض ان هذه الاقصوصة قد عوملت منا بالتصديق الكامل ، بل الساذج . واننا لم نقف من احداثها موقف النقد .. ولـم نفحص عن مدى واقعيتها ، محتكمين الى تجارب الحياة ، وظروف المجتمع الذي دارت فيه « الوقائع » . ومن امثلة الاعتراضات ما يلي :

ـ كيف لم يلاحظ ود النمير مثلا ان ضيفه لا تنمو لـه لحية ولا شارب ؟ وكيف لم يتفطن الى بروز صدرها ؟ وتكوين قوامها ؟..

ـ كيف استطاعت الاميرة ان تسوق النوق وحدها بعـد ان قتلت مرسالا ؟ وهي هي التي عاشت في بحبوحة العيش ، مرفهـة مدللة ؟ لا خبرة لها بالحياة ؟

ـ كيف يمكن ان نصدق هذه الخرافة عن عروق السحر التي تحيل اللبن رائبا اذا كان خاصا بامرأة .. وتتركه حليبا اذا كـان تحت سرير رجـل ؟

وللاجابة على ذلك نقول : اننا لو استخدمنا هـذا المنطق المتزمت في نقد الادب الشعبي عامة ، لقتلنا العشرات بل المئات مـن روائـع القصص والاساطير .. ليس في ادبنا العربي الشعبي وحده ، بل فـي كل الآداب العالمية .. هذا من وجهة نظر الادب .. فاما عـن العروق السحرية ، فاذا كانت في نظر المعترضين خرافة فليست هي كذلك في نظر من يعتقدون في فاعليتها .. وهكذا ، فمن وجهة نظر علم الاجتماع ، كثيرا ما نتعامل مع الاساطير والخرافات على انها « وقائـع اجتماعية » طالما انها تسود قوما يعيشون بها ، ولها .. ولان هناك فئات في المجتمع تتقبل هذا التراث الشعبي بالتصديق ، ولان لرواية هذه الاساطير آثارا سيكولوجية في تشكيل نفسيات الالاف من صغارنا ، والذيـن يستمعون

عن الرجال والبنادق

مجموعة قصص من

ادب المقاومة بقلم

غسان كنفاني

صدر حديثا ٢٠٠ ق.ل

الى « الحبوبات » وسنهم غضة ، وخبرتهم بالواقع قليلة ضئيلة ، فيتقبلونها على انها حقائق راسخة .. وهكذا .. فان نظرة علم الاجتماع للاساطير والاحاجي وما شاكلها تتلخص في الكلمة الوجيزة التالية :

« ان الخرافات والاساطير ... اكثر حقيقة من التاريخ وليس في ذلك مغالطة فعند علماء الاجتماع تبدو الخرافة أو الاسطورة اكثر حقيقة لانها اكثر انتشارا في المجتمع ، وتكون واقعة اجتماعية Social Fact وربما كان لها خطرها .. وكم من الاساطير اثار حروبا ، وحطم دولا ، وكم منها انتظم في صورة دين من الاديان ، وله اتباع كثيرون ... »

ويمكننا الآن ان نلخص ما خرجنا به من هذا العرض : اننا نعتقد ان هذه الاحاجي من ثمرات الادب النسوي ، وانها تركز على غرس قيم اخلاقية معينة ، فتمجد العفة ، خاصة عفة المرأة ، وتحذر الفتيات ان يسلبهن اياها فارس مغوار ، او عبد حقير ، وتعدهن بأن من يحافظن عليها ، بالحيلة حينا ، وبالشجاعة حينا ، وبحسن التصرف .. فان الجزاء هو السعادة ، في احضان فارس الاحلام ..

واحسبني مضطرا ان اختم هذا التحليل برجاء الى بناتنا السودانيات المثقفات ، ان يسارعن بتدوين ما وسعهن ، من تراث الجدات ، وبلهجتهن ، على النحو الذي فعله الاستاذ الدكتور عبد الله الطيب ، فان تسجيل هذا التراث سيخلق ثروة يتعدد المنتفعون بها ، ممن يدرسون علم الفولكلور ، ويشتغلون بعلم النفس ، ويدرسون اللهجات الشعبية ، ويهتمون بالآداب المقارنة ، ويعنون بدراسة الاصول التاريخية للعادات والاعراف الاجتماعية ، والاخلاق القومية ، والفنون الشعبية ..

وفي النهاية ، فان هذه الاحاجي ، جزء عزيز من الادب القومي الشعبي ، جدير منا بكل عناية ، تدوينا وتحليلا ، وهو يحقق لنا قدرا عظيما من الاستمتاع ، وحبذا لو بادرنا بجمع اكبر قدر منه ، قبل ان ينطمس الكثير منه ، نتيجة لعمليات التغير الاجتماعي ، والتي تجتاح المجتمع في غير هوادة ..

محمد محمد الزلباني
مدرس بكلية الآداب
جامعة القاهرة ، فرع الخرطوم

المراجع

١ ـ ابو عثمان بن بحر الجاحظ ، المحاسن والاضداد .
٢ ـ أحمد ابراهيم ابو سن (الاستاذ) ، « صفات الذاتية في الادب الشعبي » مقال في مجلة الخرطوم عدد اكتوبر سنة ١٩٦٨ .
٣ ـ خليل محمود عساكر ، ومصطفى محمد معد (الدكتوران) ، محققين كتاب « تشحيذ الاذهان بسيرة بلاد العرب والسودان » . تأليف محمد بن عمر التونسي .
٤ ـ رشدي صالح (الاستاذ) ، (مترجما) ، علم الفولكلور . تأليف الكرنذر هجرتي كراب .
٥ ـ عبد الله الطيب (الدكتور) الاحاجي السودانية ، الاجزاء ١ ، ٤ ، ٥ .
٦ ـ عبد المجيد عابدين (الدكتور) القصة الشعبية في السودان.
٧ ـ علي احمد عيسى (الدكتور) (مترجما) المجتمع . تأليف ماكيفر وبيدج .
٨ ـ محمد ثابت الفندي (الدكتور) « الفولكلور في ضوء علم الاجتماع » . مقال في مجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية سنة ١٩٥٣
٩ ـ محمد محمد الزلباني (الدكتور) الطقوس الاجتماعية المتصلة بالطفل الذكر في ولاية برقة بالمملكة الليبية المتحدة .
١٠ ـ Tribes of the Sahara by LLoyd Cabbot Briggs
١١ ـ Archives Marocaines .

مذكرات مالكولم x

زعيم الزنوج المسلمين في اميركا

في نيسان ١٩٦٥ ، اغتيل مالكولم x زعيم الزنوج المسلمين في اميركا . وقد كان وسيبقى واحدا من اشجع زعماء الحركة الزنجية في اميركا واكثرهم اصالة وابعدهم شهرة . وقبل ان يقتل بعدة اشهر (وكان يتوقع ذلك) املى على الصحفي «الكس هالاي» سيرته الذاتية التي هي اعجب سيرة لزعيم !

ذلك ان مالكولم x لا يخفي في سيرته شيئا من اسرار حياته ، بل يتحدث بكل صدق عن شبابه في الكوخ الذي كان يعيش فيه في حي « هارلم » حيث كان يتعاطى المخدرات والخمر ويمارس السرقة والسلب ويعيش عيشة الانحلال . وفي السجن الذي قادته اليه اعماله اللصوصية ، اكتشف فجاة السقوط الذي يعيش فيه ويعيش فيه كذلك كل افراد شعبه الزنوج . وهناك اعتنق الاسلام وانضم الى « امة الاسلام » ليكرس حياته كلها فيما بعد لمقاومة «الشيطان الابيض» المسؤول عن سقوط الزنوج في اميركا .

ويتحدث مالكولم x في مذكراته الرائعة عن حياة السود ومشاكلهم والتمييز العنصري الذي يمارسه عليهم البيض من الاميركيين ، وعن تمردهم وثورتهم التي نشاهد اليوم بعض مظاهرها في عدد من مدن اميركا الكبرى ، ويحلل في نفاذ وعمق الظروف السياسية والنفسية التي يعيش فيها الزنوج الاميركيون ، وعن ايمانه بالاسلام كدين يحارب التمييز ويدعو الى الاخوة الحقيقية بين الشعوب والامم .

وقد وصف روبرت كندي هذا الزعيم بانه الوحيد بين زعماء الزنوج الاميركيين الذي يملك « مغنطيسية » عجيبة !

مذكرات رائعة مؤثرة عن حياة مضطربة عجيبة لرجل عبقري يعتبر شاهدا على فترة خطيرة من تاريخ الزنوج الاميركيين الذين يكافحون من اجل تحريرهم، ويقفون بصلابة في وجه سياسة اميركا المخادعة .

صدر حديثا ـ الثمن ٥٥٠ ق.ل